فائض المعنى بين الاستعارة والرمز عند بول ريكور

عبدالله علي عمران*

المستخلص: تطور مشروع ريكور اللاهوتي، الذي يبدأ بإشكاليات الإرادة الإنسانية، ويتداخل مع قضايا اللغة الرمزية في النصوص الدينية، حتى عمم هيرمينوطيقا اللغة الرمزية الدينية، لتشمل اللغة عموما، وذلك بتعميم إشكاليات المعنى الحرفي (الظاهر) والمعنى المجازي (المختبئ) على كل مناحي اللغة، وذلك عبرَ قضية الاستعارة وقضية الرمز، وكيف أنهما يجددا اللغة وبالتالي يجددان المعنى، وهو ما يجعل من التأويل أمراً ضرورياً، مع مراعاة أن يتم ذلك وفقاً لسياقاتٍ ومعايير ثابتة. ويهدف هذا البحث إلى تتبع تطور هذه القضايا سواء من الناحية التاريخية أو بالمقارنة مع قضايا أخرى تقاطعت معها، أو بتحليلها ونقدها.

المقدمة:

لقد كان الفيلسوف الفرنسي بول ريكور Paul Ricoeur (1913 - 2005) مثيرا للجدل بشكل دائم ليس في الأوساط الفلسفية فحسب؛ بل في الأوساط اللاهوتية واللسانية والثقافية بشكلٍ عامٍ، وذلك بسبب التنوع الكبير في القضايا التي يتناولها، أضف إلى ذلك محاولته الربط بينها في نسقٍ فكريٍ واحدٍ، و بطبيعة الحال انعكس هذا الأمر على أحد جوانب الجدل الدائر حوله، وهي صعوبة تصنيفه، مِّما يتناولهُ من قضايا وإشكاليات، إذ لا يمكن الجزم، بأنها تنتمي إلى مجال محدد، فهي تتذبذب بين اللاهوت وفلسفة اللغة والفلسفة الوجودية والبنيوية والتفكيكية، وصولا إلى فلسفة الأخلاق؛ بل إنه في نقد الأيديولوجيا ذهب بعيدا في طرح أفكار ذات طبيعة سياسية.

يمكن القول بشكل عام، إن النَفَس اللاهوتي حاضر بقوة، وإن الخيط اللاهوتي، كان الناظم لأفكاره و الرابط بينها، بما في ذلك موضوع هذا البحث وهو قضايا المعنى والاستعارة والرمز، والتي تُعدُّ بمثابة استمرارٍ لمشروعه اللاهوتي عن الرمزية في اللغة الدينية، وفي الوقت ذات مقدمةً لكل الأفكار التي يتناولها لاحقاً عن الخطاب، ومن ثم عن تحول الخطاب إلى نص، ليصل في النهاية إلى التأويل الكلي، الذي يُعدُّ شكلاً من أشكال تجسيد القول في الفعل؛ وبمعنى أدق إنّ فهم المعنى بالنسبة لريكور، هو خطوة أولى، حيث إنَّ الإنسان بمجرد أن يفهم المعنى، سيقوم بتحويله بوصفه قيمة أخلاقية، إلى فعلٍ وسلوكٍ يجسده في حياته العملية.

أولا- الانتقال من اللاهوت إلى اللغة:

لقد كان لاهتمامات ريكور المتعددة، الأثر الكبير، في دفعه إلى تناول قضايا كانت في البداية قضايا فرعية، لكنها ما لبثت أن تحولت إلى قضايا أساسية، شكلت تحولاتٍ وانعطافاتٍ مهمة في فلسفته، ولعل أبرزها هي التي صاحبت قضايا اللغة، حيث تحول

* أستاذ مساعد، قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة عمر المختار abdullah.ali@omu.edu.ly

من مناقشة الإرادة إلى تناول الأساطير ومن ثم اللغة الدينية واللغة الرمزية وانتهى إلى تناول اللغة عموما، ولذلك تُعدُّ فلسفة اللغة من أهم تحولات الفلسفة الحديثة، التي كان لها نصيبٌ كبيرٌ في المركب الأصيل لفلسفته. (wall& Schweiker, 2002, p 32) بل تعد فلسفة اللغة هي حبل النجاة الذي أخرجهُ من خصوصية الهيرمينوطيقا اللاهوتية، إلى شمولية هيرمينوطيقا اللغة؛ أي التحول من لاهوتي إلى فيلسوف.

وهناك العديد من الأسباب التي جعلت ريكور يشعر بضرورة تغيير اهتمامه من المشكلة الأصيلة عن بنية الإرادة، إلى مشكلة اللغة في ذاتها، (وهي مشكلة ظلت حاضرةً حتى في الوقت الذي كان فيه يدرس البنى الغريبة لرمزية الأساطير) وأول تلك الأسباب، هو تأمله في بنية نظرية التحليل النفسي، والسبب الثاني، هو التغير المهم في الحس الفلسفي–على الأقل في فرنسا– حيث بدأت البنيوية تحل محل الوجودية والظاهراتية، والسبب الثالث، هو اهتمامه المتواصل بالمشكلة التي تطرحها اللغة الدينية، إضافة إلى اهتمامه المتزايد بالمدارس البريطانية والأمريكية في فلسفة اللغة العادية، التي رأى فيها طريقا لتحديد الظاهراتية، وردا على تجاوزات البنيوية على السواء.(وود، 1999، ص 272)

وبعد انتقالهِ إلى حقل فلسفة اللغة، تعامل ريكور مع اللغة على أنها وسيطٌ بين ما هو أصل وبين الغاية أو الهدف النهائي، ووسيطة بين المعنى المنطقي المثالي وبين التجربة المعاشة.(Kaplan, 2003, p 28) لأن اللغة في نظره هي جزءٌ من الإنسان وجزءٌ من الفعل أيضا.(Alison, 2011, 597) وإن اللغة بذاتها هي العملية التي تصبح فيها التجربة الخاصة عامةً؛ أي هي تحويل النفسي إلى تعقلي صوري. وهو ما يجعل قابلية النقل ممكنة، لأن ذلك يعني السمو بجزءٍ من حياتنا إلى مستوى الخطاب، وبذلك يتجاوز الإنسان عزلة حياته.(ريكور، 2006، ص 48) بكلماتٍ أخرى تُعدُّ اللغة هي الأداة التي يستخدمها الإنسان في التعبير عن أفكاره ولذلك تُعدُّ وسيطا بين الفكر والفعل، كما أنها الأداة التي يضخ فيها تجربته (سواء بالنطق الشفهي أو التدوين) وهو ما يجعل تجربته تتجاوز حدود عالمه الخاص.

تُعدُّ إشكالية المعنى هي الإشكالية الأساسية التي تناولها ريكور، عندما انتقل إلى إشكاليات اللغة، ويمكن الحديث عن حقبتين أساسيتين اهتم في كل واحدة منهما بطريقة من طرق استجلاء المعنى، ركزت الحقبة الأولى على تفسير الرموز واستجلاء المسائل التي تنبثق من هذا التفسير، وفي مقدمتها مسألة صراع التأويلات المغرضة المريبة، ومسألة تكثف المعنى في تعاضد التأويلات المطردة، أما الحقبة الثانية فإنها تستكشف كل النتائج التي يتضمنها تحول الكلمات والجمل المكتوبة إلى نصٍ مُتماسك البنية،

ملتحم الأجزاء منفتح الآفاق، وتستطلع أيضا الانعكاسات التي يستثيرها هذا التحول في عملية التأويل؛ أي أنها حقبة هيرمينوطيقا النصوص.(عون، 2004، ص 160)

ثانيا–المعنى المضاعف (المزدوج) بين الاستعارة والرمز:

يُعرف ريكور بأنه فيلسوف المعنى، الذي يهتم بالدرجة الأولى بتنظير المنهج الهيرمينوطيقي من أجل الوقوف على المضامين الدلالية للنصوص.(أبو السعود، 2002، ص37) وقد تأثرت إشكالية المعنى لديه بتداخل المجالات المتعددة التي تناولتها، وعليه لقد أصبحت إشكالية المعنى المضاعف وكأنها إشكالية هيرمينوطيقية حينا، أو إشكالية رمزية، حينا آخر، أو أن تصبح إشكالية سيميائية في أحيان أخرى، وما ذلك إلا علامة على تطور الهيرمينوطيقا، من مجرد تأويل للرمز، إلى تأويل الخطاب ككل.(Simms, 2003, 139)

تناول ريكور قضية المعنى المضاعف، على أنها القضية الجوهرية للغة، وذلك لكونها السمة التي تجعل اللغة نقطة التماس المجالات كافة، ولذا فإن مهمة التفسير هي فهم المعنى المزدوج.(Simms, 2003, 139) فالمعنى المضاعف يشير إلى ضربٍ من أثر المعنى؛ مِّما يعني أنَّ أيَّ تعبيرٍ له أبعاد متغيره، فهو إذ يعني شيئا، فإنه يعني في الوقت نفسه شيئاً آخراً، من غير أن يتوقف عن أن يعني الأول، وهذا يتمثل في الوظيفة المجازية للغة (فالمجاز هو أن يقول المرء شيئا آخر و هو يقول شيئا ما).(ريكور، 2005، ص 99) ولذلك نحتاج إلى فن التخمين an art of guessing، وتفسير المعنى، لأن اللغة مجازية والمعنى المزدوج للغة المجازية يتطلب فن فك التشفير art of deciphering، الذي يمكننا من كشف طبقات المعنى المتعددة. (Ricoeur , 1998, p 173)

ميزَ ريكور في سياق تناوله لإشكالية المعنى بين **العمل الأدبي والعمل العلمي**، كون الأول يتضمن معنى و دلالة مجازية، بينما يتعامل الثاني مع المعاني والدلالة على أنها حرفية، وذلك لكي يطرح سؤالا، عم إذا كان **فائض المعنى الذي يميز الأعمال الأدبية يُعدُّ جزءا من دلالتها؟** أم يفهم بوصفه عنصراً خارجياً، و**مجرد إدراك عاطفي وانفعالي؟**(ريكور، 2006، ص 83)

تُعدُّ نظرية ريكور عن المعنى المضاعف وفائض المعنى. التي ترتكز أساساً على تقنيات **الاستعارة والرمز** ـاستمراراً لنظريته في هيرمينوطيقا اللاهوت، و تجلى ذلك بوضوح، في إلحاحه الدائم على ضرورة الاحتفاظ بالمعنى الحرفي أو المعنى الأصلي، لكونه عنصر أساسي في ولادة المعنى المجازي، وهو بذلك يؤكد على ما سبق وأكد عليه، وهو ضرورة الاحتفاظ بالنصوص، خاصة النصوص المقدسة، وأن المعنى الجديد، لا يكون دائما بهدم المعنى القديم؛ بل (بتجاوز) المعنى القديم، دون هدمه أو إلغائه.

رغم تنوع المجالات التي تناول من خلالها ريكور إشكالية المعنى إلاَّ أنَّه عول في بيانها على قضيتين هما الرمز والاستعارة، مُعتبراً أن الرمزية أثرٌ من آثار المعنى.(Reynhou, 2013, p 108) وأن الرمز تعبيرٌ ألسنيٌ ذو معنى مُزدوج.(ريكور، 2003، ص 18) وإن الاستعارة هي المعنى الجديد الذي يظهر في سياق جديد.(Ritivoi, 2006. 44) وللاستعارة والرمز معنى مزدوج يتخطى الدلالة اللغوية، فلهما معنى مزدوج لفظي verbal double meaning، ومعنى مزدوج (لا–لفظي) non - verbal double meaning. (ريكور، 2006، ص 84) ويشير ريكور هنا إلى ما يعرف بالرموز غير اللغوية، والتي سيتناولها لاحقا والمتمثلةُ في الطقوس وإشارات الأيدي وتعابير الوجه.

وأعتبر أن القضيتين (الرمزية و الاستعارة) لكل واحدةٍ صلةٌ بالأخرى وتقود إليها وتؤثر فيها، فمقاربة الرمز عبر بنية المعنى المزدوج، وهي بنية ليست دلالية خالصة، كما في حالة الاستعارة، فإذا ساعدتنا نظرية الاستعارة بوصفها تحليلا تمهيديا يفضي إلى نظرية الرمز، فإن نظرية الرمز في المقابل ستتيح لنا توسيع نظرية الدلالة، بإتاحتها لنا أن نضمن فيها ليس المعنى اللفظي المزدوج فقط؛ بل والمعنى (اللا–لفظي) المزدوج أيضا. (ريكور، 2006، ص 84) كما أن العلاقة بينهما تتشابك مع عنصر آخر وهو التأويل، وعرف مفهوم التأويل عند ريكور مرحلتين: الأولى عندما حدده بعلاقته بالرمز، والثانية عندما قرنه بالمجاز والاستعارة، لكونهما يمثلان حلقات في السلسلة التأويلية.(بغوره، 2005، ص 124) غيْر أنَّ ريكور لا يساوي بين الاثنين، إذ وجد أن دراسة مشكلة المعنى المضاعف من خلال الاستعارات، أفضل من دراستها من خلال الرموز؛ ويعود ذلك لعدة أسباب، فلقد كانت الاستعارة موضوعا لدراسة طويلة ومفصلة قام بها البلاغيون. أما الرموز فهي تواجه صعوبات عدة أهمها أنَّها تنتمي إلى حقول بحث متعددة جدا ومتشعبة، مثل التحليل النفسي، والشعرية في المجال الأدبي. (ريكور، 2006، ص ص 96- 98)

1- نظرية الاستعارة:

كانت الاستعارة حتى وقت قريب شيئا شاذاً يقع خارج مركز اهتمام الفلاسفة و المفكرين؛ بل يعدها (مويج) لغة وهمية يستخدمها الشعراء والساسة والمختلون عقليا، ولكنها بعد ذلك لقيت اهتماماً بالغاً، فعدت عند (ديرفين) أعمق عمليات التفاعل الإنساني مع الحقيقة، وأكثرها عمومية، إنها آلية للمعرفة تساعد على بناء العالم، كما تمثل القدرة البشرية على صنع المعنى.(ستين، 2005، ص 22) ساهم مجال الهيرمينوطيقا بعد المجال الأدبي في تطور نظرية الاستعارة وتوسعها وتجاوزها ويُعد ريكور أحد أهم فلاسفته.

ولدت نظرية الاستعارة من رحم تأمل ريكور للغة الرمزية وقضية الخلق والإبداع في اللغة، وذلك في سياق دراسة الرمزية والاستعارة واللغة السردية، حيثُ تعامل مع الاستعارة على أنها الإشكالية الجوهرية للهيرمينوطيقا، وذلك لعلاقتها بتأويل النص وبالفهم.(Reagan, 1998, p 42) كما نظر ريكور إلى الاستعارة على أنها وسيلة مناسبة لإدراك الأنماط المتعددة داخل الخطاب، وتبقى مثل هذه النظرية ذات حساسية بالغة تجاه الوظائف المجازية المختلفة، من النص الشعري إلى النص الفلسفي والنص العلمي.(Reynhou, 2013, p 44) وكان هدفه من استخدام الاستعارة هو أن يجعلها أنموذجا لكل إبداعٍ من خلال اللغة، انطلاقا من أن الخطاب الديني هو شكل من أشكال الخطاب الشعري والإبداعي، ولذلك تكون الطريقة الوحيدة لفهمه عبر الاستعارة.(CASEY, 2019, p 29) وبذلك يؤكد ريكور ما سبق وأشرت إليه من أن هيرمينوطيقا اللاهوت عندهُ هي الركيزة الأساسية، التي تأسست عليها بقية نظريته الهيرمينوطيقية؛ بل إنَّ كل فروع الهيرمينوطيقا التي طوّرها، هدفت في الأساس لخدمة هيرمينوطيقا اللاهوت.

ولأهمية الاستعارة خصص لها ريكور كتابا (بعنوان قواعد الاستعارة) The rule of metaphor، (في الأصل الفرنسي الاستعارة الحية) وذلك باختبارها تدريجيا عبر ثلاث كيانات، وهي الكلمة والجملة والخطاب: إشكالية الاستعارة على صعيد الكلمة تتمثل في مجال البلاغة Rhetoric، أما الاستعارة على صعيد الجملة فهي تتمثل في مجال السيميائية semantics، والاستعارة على صعيد الخطاب هي من مجال الهيرمينوطيقا hermeneutic.(Simms, 2003, 61) وفي تقديمه لكتابه عن الاستعارة اعتبر أن الدراسات المختلفة داخله ما هي إلاَّ عرض لوجهة نظره التي تطورت في الوقت ذاته، وتعد أيضا كلاً مُتكاملاً، حيث تنطلق من البلاغة التقليدية Classical rhetoric مروراً بالسيميائية وعلم الدلالة semantics وصولا في النهاية إلى بحوث الهيرمينوطيقا.(ريكور، 2016، ص 41)

أ–ولادة الاستعارة (تجديد اللغة بكسر المعنى السائد):

حاول ريكور البحث عن الأسباب الداعية لوجود الاستعارة، أو **ما الحاجة إلى تعدد معاني الكلمات؟ ولماذا تحدث هذه الانحرافات أو هذه المجازات الأسلوبية، عما هو يومي**؟ واستعرض ريكور عدة إجابات، على هيئة افتراضات أولية، لعل أهمها هو أن الاستعارة توجد بصفة عامة، **لردم فجوة دلالية في الشفرة المعجمية**، أو **لتزيين الخطاب وجعله أكثر إشراقا**، ولأن لدينا أفكارا أكثر مما لدينا من كلمات تعبر عنها، فلابد من أن **نبسط دلالات الكلمات التي لدينا إلى ما يتخطى حدود الاستعمال اليومي**، أو نختار في الحالات التي تتوفر فيها كلمات مناسبة، أن نستعمل كلمة مجازية، **لكي ندخل السرور أو الفتنة**

في قلوب المستمعين إلينا، وذلك بالتأثير عليهم بطريقة غير برهانية، وبدون استخدام العنف. غير أنَّ ريكور يُوجزُ كل تلك الإجابات في إطار عام، يتمثل **أولا** في نفي أن تكون الاستعارة مجرد تزيين لفظي للخطاب؛ بل هي ذات قيمة انفعالية تعطينا معلومة جديدة عن الواقع. (ريكور، 2006، ص ص 85 – 95) **وثانيا** في التأكيد على أن أهمية الاستعارة، تكمن في إشارتها إلى الطريقة التي **تجدد بها اللغة نفسها باستمرار**، عن طريق العملية المجازية، حيث تبرز الاستعارات تشابهات جديدة تمنعنا المعاجم التقليدية من رؤيتها، وذلك بكسر الفئات القديمة داخل النظام اللغوي، وتقترح العملية المجازية فئات جديدة، قد يتم دمجها في النهاية في الشفرة السيميائية.(Jamas, 1995, p 159)

فعندما تعزل الكلمات عن بعضها، ويُصبح لكل منها دلالتها في حد ذاتها، وهو ما يسميه أرسطو بالمعنى السائد، مِّما يعني أن يكون المعنى مُشتركا عند جماعة من الناس، و ثابتا من خلال المعايير العاملة لدى تلك الجماعة الناطقة؛ وبكلماتٍ أخرى إن البلاغة تبدأ حيث تنتهي الشفرة المعجمية.(ريكور، 2006، ص 87) وبهذا يوافق ريكور على المعنى السائد للاستعارة في أوساط النقد الأدبي، التي تقول إن التعبير الإستعاري يكون أصيلا، بقدر ما يؤدي إلى خرق العادات البلاغية السابقة، لأنه من العسير ابتكار استعارة جديدة، استنادا إلى قواعد معروفة.(إيكو، 2004، ص 145) ويشير ريكور بكل وضوحٍ إلى أن الاستعارة هي وليدة خرق المعنى السائد للكلمات سواء على صعيد الكلمة المفردة أو في الجملة، وأن البلاغة تعني قبل أي شيء، تجاوز الاستخدام المعتاد للمعاني.

ب- الاستعارة الحية و الاستعارة الميتة:

يميز ريكور -بناء على تمييز كونراد Konrad- بين الاستعارة اللغوية Linguistic metaphor، التي تسعى إلى نحت ألفاظ جديدة، أو سد نقص معجمي، والاستعارة الجمالية Aesthetic metaphor، التي تعني تقديم العالم بشكلٍ جديدٍ، من خلال تأليف علاقات وربط الأشياء من زاوية شخصية، وهي علاقات ليست ذات طبيعة لغوية؛ بل هي مماثلات بين الأشياء عموما، كما يميز بين الاستعارة الحية living metaphor والاستعارة المستهلكة worn-out metaphor ، حيث تبدو الأولى غنية في حين تُصبحُ الثانية جزءا من المعجم (تم تعجيمها)، تأتي قيمةُ الاستعارة الحية من أنها تضيف شيئاً إلى التعدد الدلالي، ولكن حينما تعجزُ عن أن تكون تجديدا، تستحيلُ إلى استعارة مستهلكة، ثم عبارة جاهزة، وهذا ما يكشف عن دورة بين اللغة والكلام، حيث تنطلق اللغة بتعددها الدلالي ثم تنتج الاستعارة الحية من الكلام ثم تتحول إلى استعارة مستهلكة وتعود مرة أخرى إلى اللغة. (ريكور، 2016، ص ص 192- 201)

تُعدُّ الاستعارة ابتكارا دلاليا، لا مكان له في اللغة السائدة، فالاستعارات التي يسميها ريكور الاستعارات الميتة، يحولها التكرار إلى جزء من المعنى المعجمي، إذ تسهم بعد ذلك في تعدد الألفاظ اليومية لأنه لا يمكن أن يحتوي المعجم على استعارات حية. (ريكور، 2006، ص ص 92- 95) وهو ما ذهب إليه (إيكو) عندما أكد أنه لا مكان للاستعارات الحية في اللغة السائدة، لأن قواعدها لا تنتج سوى الاستعارة الميتة أو التافهة. (إيكو، 2004، ص 145)

ت- الاستعارة بين المعنى الحرفي و المعنى المجازي:

لا يُمكنُ تلقي الاستعارة على أنها استعارة إلا بالإحالة على المعنى الحقيقي في الوقت نفسهِ الذي تحيل فيه على المعنى المجازي، ومن هنا فإن العلاقة بين القاعدة والانحراف هي التي تحدد العملية الأسلوبية وليس الانحراف في ذاته.(فضل، 1993، ص 58) فالاستعارة هي نتاج تعارض تأويلين للقول الواحد، وهي لا توجد في ذاتها بل بالتأويل ومن خلاله، وبالتالي فالاستعارة ليست نتيجة المشابهة؛ بل هي نتيجة توتر بين تأويلين، أحدهما حرفي والأخر مجازي. (ريكور، 2006، ص 93) ولذلك قد تبدو الاستعارة وكأنها اندماج للمعنى، ولكنها في الواقع مكان للخلط بين المعنى الجديد والمعنى القديم، فالتشابه مختلط بشكل لا ينفصم مع الاختلاف. (Fieser, 2011, p 113) لأن ما يخلق تفسيرًا مجازيًا للنص هو التأرجح بين التفسير الحرفي والتفسير غير الحرفي وبالتالي فإن هذين الاحتمالين يجب الحفاظ عليهما.(Jamas, 1995, p 149) وهذه الفكرة يؤكد عليها ريكور مرارا، حيث إن المعنى وتطوره بصفة عامة يخضع لعملية تنافر التأويلات سواء على صعيد الكلمة أو حتى الجملة والخطاب. وأن الوصول إلى معنى جديد لا يتم إلاَّ بوثبةٍ يقوم بها التأويل على معنى قديم.

ث- الاستعارة و دلالة الجملة بدلا من دلالة الكلمة:

وفي سياق تطويره لمشروعه التأويلي القائم على نظرية الخطاب، يعتقدُ ريكور ضرورة مُراجعة تاريخ مشكلة الاستعارة، من أجل الانتقال بها من علم دلالة الكلمة إلى علم دلالة الجملة، لأنها تنتج على صعيد الجملة كاملة، ولكونها تتجاوز العدول عن المعنى الحرفي للكلمات؛ بل إلى توظيف الإسناد على صعيد الجملة بالكامل. (ريكور، 2006، ص 85 -90) فتدمير المعنى الحرفي في الاستعارة يتيح لمعنى جديد أن يظهر، وبالطريقة ذاتها تتبدل المرجعية أو الإحالة في الجملة الحرفية، وتحل محلها إشارة ثانية هي تلك التي تحملها الاستعارة.(مصطفى، 2007، ص 458) بمعنى أن هناك سياق دلالي للجملة عموما تؤدي فيه كل كلمة دوراً في بناء المعنى العام للجملة، إلا أنه يمكن خلق معنى جديداً للجملة باستبدال كلمةٍ بكلمةٍ، حيث تكتسب هذه الكلمة معنى جديداً، مستفيدة من السياق الدلالي للجملة، وفي الوقت ذاته تجعل الجملة تكتسب معنى جديداً عبر تغير تلك الكلمة.

يرتبطُ معنى الكلمة بمعنى الجملة، أو حساسية السياق، فحتى لو كان للكلمة معنى مستقل فهو نتاج مخزون السياقات السابقة، ليس المعنى وحسب بل اللغة برمتها بوصفها نسقا دلاليا، هي في الحقيقة تحت رحمة ضغوط خارجية، مثل سيطرة فئة أو طبقة، لذلك يرى ريكور، أنه من المتعذر تخيل الحالة (صفر) من البلاغة، أي اللغة ما قبل الحالة البلاغية أو الإستعارية، فكل المعاني مشتقة، أي أن كل الاستعمالات الحالية، هي مجازية، ومن هنا تختلط البلاغة مع الدلالة. (ريكور، 2016، ص 220-236)

2- إشكالية الرمز:

فرضت مشكلة المعنى التي يتناولها ريكور عليه أن يتوسع فيها تدريجيا متنقلا بين فروعها المختلفة، وانطلاقا من إشكالية المعنى وتعدده، فلقد توسعت هيرمينوطيقته باتجاه الرموز معتبرا إياها معنى مضاعفا.(Reagan, 1998, p 27) إذ يُميِّزُ نوعا من أنواع المعنى المضاعف، لكي يطلق عليه تسمية رموز، وذلك بهدف منح هذه المظاهر المبعثرة للرمز قواما ووحدة، فعرفه ببنية دلالية مشتركة، هي بنية المعنى المضاعف. (ريكور، 2003، ص 24) وبالتالي فقد تعامل مع إشكالية الرمز، في إطار القضية العامة وهي قضية المعنى، معتبرا أن الهيرمينوطيقا **مجموعة القواعد المستخدمة لفك الرموز**، كما تهتم من جهة أخرى بتفسير المعنى في حالات القصدية المضاعفة الرمزية، أو المعنى المضاعف.(Reynhou, 2013, p 40) ويمكن عبر الرموز فهم المعنى المزدوج، حيث يشير المعنى الأساسي إلى معنى ثان يتجاوزه لا يعطى بشكل مباشر.(Ricoeur, 1998, p xliii)

أ–الرمز بين اللغة والوجود:

تتمثلُ الفائدة الفلسفية الوحيدة للرمزية في أنها تكشف عن طريق بنيتها للمعنى المضاعف، التباس الكائن: إذ يقول الكائن نفسه بصور متعدد، وتكمن علة وجود الرمزية في فتح تعددية المعنى على التباس الكائن. (ريكور، 2005، ص 103) وهذا ما يجعل كلمة (رمزي) تبدو على أنها الكلمة المناسبة جدا، للدلالة على الأدوات الثقافية لإدراكنا الواقع فكريا: الدين، اللغة، الفن، العلم. (ريكور، 2003، ص 19) كما تسهم الرموز في تعزيز الذاكرة أو العقل الجمعي للجماعة البشرية، حيث تجعل تلك الذاكرة مصممة بشكل رمزي.(BRIAN & HENRY, 2010, p 152) وكأن بعض التجارب الإنسانية العميقة تكوّن رمزية مباشرة، تتصدر أكثر أنواع الأنساق بدائية، ويبدو أن هذه الرمزية الأصيلة تلتصق بأكثر أنواع الوجود الإنساني ثباتا. (ريكور، 2006، ص 110) وبناء على هذه الأهمية، يمكن القول إننا لن نفهم الوجود الإنساني والإمكانات الإنسانية إلا بتحليل الرموز والنصوص التي تشهد على ذلك الوجود. (وود، 1999، ص 80)

وعلى الرغم من تأكيد ريكور على أن الرموز يمكن أن تتمثل في أشكال عدة من الوجود الإنساني، إلا أنه أكد على الطبيعة اللغوية للرمز، وأن يكون الرمز مُعبرا عنه باللغة، بمعنى التأكيد على الرموز اللغوية.(أبوزيد، 2005، ص 45) ما يعني أن صنوف الرموز البشرية تجد دائما ما يقابلها لغويا لكي يمكن تفسيرها أو تأويلها والتعامل معها لأن الرمز تعبير ألسني ذا معنى مضاعف يتطلب تفسيرا. (ريكور، 2003، ص 18) وعلى الرغم من التجذر المختلف لهذه الرمزيات في القيم الظاهرة للكون، فإنها جميعا تجيء في عنصر اللغة، إذ لا توجد رمزية قبل الإنسان الذي يتكلم، ولذا من الضروري دائما وجود اللغة. (ريكور، 2005، ص 12)

أوضح ريكور أن دراسة الرمز تصطدم بمعضلتين كبيرتين تجعلان الاقتراب من المعنى المزدوج أمرا غاية في الصعوبة تتمثل المعضلة الأولى في انتماء الرمز إلى حقوق معرفية عدة ومتشعبة يصعب استقصاؤها مثل التحليل النفسي والأديان واللسانيات والمعضلة الأخرى هي أن الرمز يُشكل مُلتقى لعالمين خطابيين أحدهما لغوي والآخر غير لغوي.(المحمداوي، 2013، ص 1276) فالرموز تنتمي إلى حقول بحث متعددة جدا ومتشعبة جدا، مثل التحليل النفسي، والشعرية في المجال الأدبي، حيث تجمع الرموز بين عالمين للخطاب، أحدهما لغوي والآخر من مرتبة غير لغوية، حيث يشير البعد اللغوي إلى نظرية الدلالة الرمزية، أما البعد اللا لغوي فهو يشير إلى ما يشير إليه الرمز. (ريكور، 2006، ص ص 95-98)

ب- الرمزية بين المعنى الحرفي والمعنى المجازي:

عرف ريكور الرمز كأي بنية دالة structure of signification، يدل فيها المعنى -الحرفي والأولي والمباشر- على نفسه، بالإضافة إلى دلالته على معنى آخر غير مباشر-ثانوي و مجازي- إلا أنه لا يمكن فهم (المعنى غير المباشر) إلا بالمعنى الأول (المباشر). (ريكور، 2005، ص 44) و لهذا يميز ريكور بين صنفين من الرمزية: الرمزية الضمنية أو الكامنة في مقابل الرمزية الصريحة أو المستقلة. (وود، 1999، ص 50)

كما أستدل على الطبيعة اللغوية للرموز عبر إمكانية بناء علم دلالة لها؛ و ذلك بوضع نظرية تفسر بنيتها الدلالية المتعددة والمتشعبة من خلال المعنى أو المغزى، وهكذا نستطيع أن نتحدث عن رموز مزدوجة المعنى، أو رموز ذات معان أوائل وثوان. (ريكور، 2005، ص 338) ويرى ريكور أن الرمز موجود حيث يصلح التعبير الألسني بمعناه المزدوج، أو معانيه الكثيرة لعمل التفسير، والبنية القصدية لا تكمن في علاقة المعنى بالشيء (الذي يشير إليه الرمز)، بل في علاقة المعنى بالمعنى، علاقة المعنى الثاني

بالمعنى الأول، سواء أكانت هذه العلاقة مماثلة أم لا، وسواء كان المعنى الأول يخفي المعنى الثاني أو يبينه. (ريكور، 2003، ص 25)

ينظر ريكور إلى الرموز من دورها الّذي تؤديه في الوساطة، فهي الوسيط للولوج إلى عالم المعنى الحقيقي، فالرمز شفاف، وبالتالي المعنى الحرفي والظاهر ليس زائفا، ولكنه وسيلتنا الوحيدة للوصول إلى المعنى الباطن، وعلى هذا فهدف التفسير وغايته ليس هو تحطيم الرمز؛ بل البدء به، إن عملية التفسير تقوم على حل شفرة المعنى الباطن في المعنى الظاهر، وفي كشف مستويات المعنى المتضمنة في المعنى الحرفي. (ريكور، 2005، ص 45) يتطلبُ فك رموز المعنى المضاعف، التمييز بين المعنى المجازي الخفي والمعنى الحرفي الظاهر.(Reynhou, 2013, p 40) حيث إنّ الرمز يختفي ويخادع في الاختفاء، بالكيفية ذاتها التي يظهر بها،(Ihde, 1971, p 22) والتعرف على المعنى الحرفي، هو الذي يتيح لنا رؤية ما إذا كان الرمز يحتفظ بمزيد من المعنى، وفائض المعنى هذا هو المتبقي من التأويل الحرفي، ولا يعني هذا أن هناك دلالتين إحداهما حرفية والثانية رمزية؛ بل حركة واحدة تنقله من مستوى إلى آخر يجعله يتمثل الدلالة الثانية بوساطة الدلالة الحرفية أو من خلالها. (ريكور، 2006، ص 97)

ت- التأويل والرمز:.

يرى ريكور أن الرمز يعمل بمعناه العام جدا بوصفه فائض دلالة Surplus of signification .(ريكور، 2006، ص 97) ويعد التأويل بمثابة كشف لمستويات المعنى المتضمنة في المعنى الحرفي، وهكذا يصبح التأويل والرمز مفهومين متجاورين، فحيث يوجد معان متعددة للرمز فثم تأويل لابد منه لجعل هذه المعاني واضحة وجلية.(هاشم، 1996، ص 105) فحيث يكون التأويل يكون هناك معنى متعدد، مما يجعل تعددية المعنى ظاهرة بوضوح في التأويل. (ريكور، 2005، ص 43) أي أن الرمز عادة ما يتضمن معان متعددة، بعضها ظاهرة والأخر مختبئ خلف الرمزية، مما يجعل التأويل ضروريا لكشف تلك المعاني؛ بل ويزيد من غزارة الرموز وفاعليتها.

ناقش ريكور إشكالية المعنى المزدوج من زاويتين متباينتين لكنهما تفضيان إلى تكامل منسجم، وهما الزاوية الهيرمينوطيقية والزاوية الدلالية، عبر صياغة نظرية في الرمز والتأويل الرمزي، بحيث تفكر في قدرة الرمز على الانفتاح والتأويل وقدرة التأويل على الكشف على اتساق الرمز. (المحمداوي، 2013، ص 1276) فالتأويل هنا هو في الحقيقة فهم للمعنى المضاعف؛ مما يجعل مفاهيم الرموز والتأويل متلازمة؛ فالرمز هو التعبير اللغوي (اللساني) linguistic expression للمعنى المضاعف، ذلك الذي يتطلب تأويلا. والتأويل هو ذلك العمل الذي يهدف إلى فك شفر الرموز.(Reynhou, 2013, p 40) ومن جهة أخرى

فالمشكلات التي يطرحها الرمز، تنعكس في النتيجة على منهج التأويل، ودائرة التعبيرات هذه، مع المعنى المضاعف، هي التي تشكل مجال الهيرمينوطيقا. (ريكور، 2005، ص 44)

أي أن هناك ما يشبه السلسلة الهيرمينوطيقية المتكاملة التي تتابع حلقاتها بشكل متشابك، لا يمكن فصل أي منهما عن الأخرى، ويبين ذلك في كتابه صراع التأويلات، ببيان أنّ الرمز مع بنيته للمعنى المضاعف يبدأ بالظهور عبر عملية التأويل ذاتها بوصفه مكملا لها وجزءا لا يتجزأ عنها، فبدون الرمز لا يمكننا الدخول إلى الدلالة، خاصة تلك التي يخفيها المعنى؛ أي التي يبقيها فيما وراء تلك الدلالة المباشرة immediate significance. إضافة إلى ذلك نحن نحتاج إلى فهم الرمز والمعنى كلاهما معا في داخل الخطاب.(Villaverde, 2012, p 113)

ث-الرمزية والسياق:

من أبرز ما خلص إليه ريكو فيما يتعلق بتأويل الرموز تأكيده على استخدام المنظومة الرمزية، وذلك لأننا إذا نظرنا إلى أن الرمز المنفصل لا معنى له، أو إذا نظرنا بالأحرى إلى الرمز المنفصل بوصفه كثير المعنى. فتعددية المعنى هي قانونه(النار تسخن، تضيء، وتطهر، وتحرق، وتجدد، وتفني. إنها لتعني في وقت واحد الشهوة والروح القدس). في المقابل لا يوجد أيضا عقل تأويلي من غير تناوب اقتصادي وتنظيمي يستطيع علم الرموز أن يعي فيه. فإذا أخذت الرموز لذاتها، فسنجد أنها مهددة بالتأرجح بين الانطماس في التخيل أو التبخر في المجاز. فغناها وحيويتها وتعددية معناها تعرض الرمزيين السذج للإفراط وللمجاملة. وهذا أمر لا ترمزه الرموز إلا في مجموعات تحدد معانيها. (ريكور، 2005، ص 94- 97) فغياب السياق الرمزي يحيل التأويل الرمزي إلى ما يشبه العبث. فقد يعطى للرمز أي معنى.

معتبرا أن ما يميز الرمزية الضمنية في الفعل، عند الأنثربولوجي، هي أنها تشكل سياقا وصفيا لأفعال معينة، بعبارة أخرى، إنها ذات علاقة بعرف رمزي معطى بحيث إننا نستطيع أن نؤول إيماءة معينة بوصفها إشارة إلى هذا الشيء أو ذاك. حين يرفع المرء يده يمكن أن يفهم استنادا إلى السياق بوصفها إشارة ترحيب أو إيقاف سيارة أجرة أو تصويت، بهذه الطريقة تعطي الرمزية قابلية قراءة أولية للفعل، فهي تجعل من الفعل شبه نص، توفر له الرموز قوانين الدلالة التي يمكن من خلالها تأويل تصرف معين.(وود، 1999، ص 50)

ويؤكد مصطلح رمز لدى الانثربولوجيين على الطابع العام public character لأي تعبير له معنى، وهذا التعريف يشير إلى أن الرمزية ليست في الذهن، وليست عملية نفسية من المقرر لها أن تهدي الفعل؛ بل هي معنى يندمج في الفعل، كما أن مصطلح

رمز، أو الأصح الوساطة الرمزية symbolic mediation يشير إلى الخاصية المبنية لنظام رمزي، وبهذا المعنى يمكن الحديث عن أنماط رمزية، ويصبح فهم فعل طقوسي بوضعه داخل فئة عبادية، إلى جوار مجموعة من الأوامر والنواهي في فئة كلية من الأعراف التي تكون الإطار الرمزي للثقافة.(ريكور 1، 2006، ص 104) حيث يشكل النظام الرمزي عبر الاستناد إلى منظومة ثقافية، ما يشبه النص، مما يجعله قابلا للتأويل.

الخاتمة:

من الجلي جدا، أن ريكور لا يضيف جديدا بخصوص إشكالية المعنى المضاعف ولا بخصوص قطبيها الاستعارة والرمز؛ بل هو يعيد ما قيل سابقا حول هذه الإشكاليات، ولكن الواضح أيضاً، أنهُ يحاول توظيف النظريات الخاصة بالاستعارة والرمز، للتأكيد على نقطتين أساسيتين، تتمثل الأولى في أهمية المعنى الحرفي والمعنى المجازي، والتأكيد على الصلة بينهما بما لا يسمح بإلغاء أحدهما للآخر، أما النقطة الثانية، فهي أهمية السياق في تأويل المعنى المجازي، بحيث يجعل من النسق أو المنظومة اللغوية أو الرمزية، ضرورة لأي عملية تأويلية.

وفي سياق ذلك يؤكد ريكور على أهمية تجديد اللغة لنفسها، لكي تحافظ على حيويتها، وتحافظ على عذرية المعنى بشكل دائم، لأن المعنى المتجدد والبكر، هو الذريعة التي تبيح ضرورة التأويل، فلولا تطور الاستعارة وتحولها مع مرور الوقت إلى استعارة ميتة ودخولها في نسق اللغة، ما كان التأويل ضروريا، إضافة إلى الغموض الذي يحيط بالرمز بشكل دائم، ويجعل منه قابلا لإعادة الظهور في أشكال عدة؛ بسبب الاستخدام الدائم والمتنوع من طرف الإنسان، فالرمز من وجهة نظر ريكور هو من أبرز الطرق التي يستخدمها الإنسان للتعبير عن نفسه.

بشكل عام وفي المحصلة، لا تبدو إشكالية المعنى كما يتناولها ريكور . بجعلها ترتكز على كل من الاستعارة والرمز . ذات تأثير بالغ على الأوساط الفلسفية؛ بل لا يمكن القول إنها تتضمن إضافات مُهمة، إلاَّ أنها ذات أهمية بالنسبة لمشروع ريكور، حيث تعد حلقة الوصل بين هيرمينوطيقا اللاهوت وهيرمينوطيقا اللغة(التي قدمها في كتابه صراع التأويلات)، ولا تكون واضحة ويمكن فهمها بسهوله واستشعار أهميتها، إلا بوضعها في سياق مشروعه عموما؛ أي لابد من الرجوع إلى هيرمينوطيقته اللاهوتية(كما تناولها في كتابه الإنسان الخطّاء)، وأيضا نظريته عن الخاصة بهيرمينوطيقا الخطاب(التي قدمها في كتابه نظرية التأويل الخطاب و فائض المعنى) وهيرمينوطيقا النص وهيرمينوطيقا الفعل(كما عرضها في كتابه من النص إلى الفعل).

Surplus of Meaning between metaphor and symbol Of Paul Ricoeur

Abstract: Ricoeur has developed his theological project as it began with problems of the human will, and then overlapped with issues of symbolic language in religious texts. He generalized interpretations of religious symbolic language to language in general by generalizing problems of literal and figurative meaning to all aspects of language. Through the subject of metaphor and the question of symbol, and how they renew language and meaning, and thus interpretation becomes necessary. Note that this is done according to established contexts and standards. This research also aims to trace the development of these issues historically or in comparison with other issues that intersect with them, or through their analysis and criticism.

المصادر والمراجع العربية:

- أبو السعود، عطيات (2002) **الحصاد الفلسفي للقرن العشرين**، منشأة المعارف، الإسكندرية
- أبوزيد، نصر حامد (2005) **إشكاليات القراءة وآليات التأويل**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء
- إيكو، إمبرتو (2004) **التأويل بين السيميائيات و التفكيكية**، (ت) سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء
- بغوره، الزواوي (2005) **الفلسفة واللغة**، (**نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة**)، دار الطليعة، بيروت
- ريكور 1، بول (2006) **الزمان و السرد ج1**(**الحبكة والسرد التاريخي**)، (ت) سعيد الغانمي، فلاح رحيم، الكتاب الجديد، بيروت
- ريكور، بول (2016) **الاستعارة الحية**، (ت) محمد الولي، دار الكتاب الجديد، بيروت
- ريكور، بول (2003) **في التفسير** (**محاولة في فرويد**)، (ت) وجيه أسعد، أطلس للنشر والتوزيع، دمشق
- ريكور، بول (2005، **صراع التأويلات** (**دراسات هيرمينوطيقية**)، (ت) منذر عياشي، دار الكتاب الجديد، بيروت
- ريكور، بول (2006)، **نظرية التأويل** (**الخطاب وفائض المعنى**)، (ت) جورج زيناتي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء
- ستين، جيرارد (2005) **فهم الاستعارة في الأدب**، (ت) محمد أحمد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة
- عون، مشير (2004) **الفسارة الفلسفية**، دار المشرق، بيروت
- فضل، صلاح(1993) بلاغة الخطاب وعلم النص، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت
- المحمداوي، علي (2013) **الفلسفة الغربية المعاصرة** (ج 2)، الاختلاف، الرباط
- مصطفى، عادل (2007) **فهم الفهم مدخل إلى الهيرمينوطيقا** (**نظرية التأويل من أفلاطون إلى غادامير**)، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة
- هاشم، محمد (1996) **ظاهرية التأويل قراءة في دلالات المعنى عند ريكور**، مجلة فصول العدد (59)، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة
- وود، ديفيد (محررا) (1999) **فلسفة بول ريكور** (**الوجود والزمان والسرد**)، (ت) سعيد الغامدي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء

المصادر و المراجع الأجنبية:

- Alson ,Baumann (2011) , Text as action, action as text ، Discourse Studies, SAGE

- BRIAN ,Treanor, & HENRY, Venema,(2010) A Passion for the Possible Thinking with Paul Ricoeur , Fordham UNIVERSITY PRESS

- CASEY ,Patrickj.(2019), Ricoeur on Truth in Religious Discourse :A Reclamation ، Horizons , Volume 46 , Issue 1 , June, Cambridge University Press

- Fieser ,James,(2011) Gadamer and Ricoeur Critical Horizons for Contemporary Hermeneutics, Continuum International Publishing Group

- Ihde ,Don,(1971) Hermeneutic phenomenology; the philosophy of Paul Ricoeur, Evanston, Northwestern University Press

- Jamas, Fodor,(1995) Christian Hermeneutics Paul Ricoeur and the Refiguring of Theology, Oxford University Press

- Kaplan ,David M.(2003) ،Ricoeur's Critical Theory, SUNY Press

- Karl Simms ،Paul Ricoeur Critical Thinkers. Routledge, London 2003

- Reagan ,Charles E.(1998) ،Paul Ricoeur: His Life and His Work, University of Chicago Press

- Reynhou , Kenneth A.(2013) Interdisciplinary Interpretation: Paul Ricoeur and the Hermeneutics of Theology and Science, Lexington Books

- Ricoeur ,Paul,(1998) Hermeneutics and the Human Sciences Essays on Language, Action and Interpretation , Cambridge University Press

- Ritivoi ,Andreea(2006) ،Paul Ricoeur Tradition And Innovation in Rhetorical Theory, SUNY Press

- Villaverde ,Marcelino(2012) Knowledge and Practical Reason: Paul Ricoeur's Way of Thinking, LIT Verlag Münster

- Wall , John & Schweiker ,William, ,(Edit)(2002) Paul Ricoeur and Contemporary Moral Thought, Routledge, London